

الأساس: الكتاب الأول: الافتراضات الأساسية (140)

الإدراك (101)

الإدراك والحلم والإبداع (2 من 5)

مراحل الحلم ومستوياته

Information Processing

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD241212.pdf>

بروفيسور يحيى الرخاوي

mokattampsy2002@hotmail.com - rakhawy@rakhawy.org

نشرة "الإنسان والتطور" 2012/12/24

السنة السادسة - العدد: 1942



مقدمة:



انتهت نشرة أمس إلى أننا يمكننا صياغة عملية الحلم في مراحل ثلاث أساسية، لكن قبل أن نفعل ذلك نتوقف قليلاً لإشارة محدودة عن علاقة الحلم بالإدراك، أملين ليس فقط أن يفسر الإدراك الذي يشتمل نشاط العين الداخلية ما يؤكد أنه يتجاوز الحواس الخمس بدليل هذه العين التي "تري" صور الحلم، أثناء حركة العين السريعة (ريم REM) كما افترضنا وإنما قد يفسر الحلم إذا تذكرنا

أن أحد تجليات الإدراك وظيفة الإدراك الهامة هو أنه معرفية من حيث أنها وظيفة إيجابية عميقة تنشط في النوم مثلما تنشط في اليقظة، ترتب المعلومات، وتُحكم التناغم وتفرض التعلم (نشرة أمس) ألا يعنى ذلك قيام الحلم بنشاط معرفي هو أقرب إلى الإدراك، بل أقرب إلى الإبداع من نشاط التفكير اليومي العادي بما في ذلك الفهم.

الإشكال الثاني الذي أثير في نشرة أمس وسوف نعود إليه هو إشكال الحديث عن الزمن بلغة وحدات متناهية الصغر لا يمكن رصدها، ناهيك عن إثبات ما حدث أثناءها في الوقت الحالي، بأية مهارة تقنية، مع أنني آمل أن نتوصل إلى بعض ذلك ولو في المستقبل البعيد.

غرابة هذه الفروض، ومساحة هذا التأجيل يتطلبان صدرا رحبا، وتلقيا مبدعا، وخيالا خصبا من المتلقى حتى يستطيع متابعتنا وهو يصدقنا أو يحاول ذلك، ولو سألتني أحدهم عن مصدرى أو وسيلتى لرصد أجزاء الثواني هذه سواء بالنسبة لإبداع الحلم أو بالنسبة لما يجرى في العلاج الجمعي لما استطعت الإجابة، برغم أن الكثيرين مرضى وتلاميذى يقبلون الفكرة بسهولة، وربما يعايشونها بدرجة ما، ربما يصدقون من واقع خبرة التراكم الذى يؤدى إلى تغيرات نوعية فى الوعي أو السلوك أو كليهما فى أى منا.

أحد تجليات الإدراك وظيفة الإدراك الهامة هو أنه معرفية من حيث أنها وظيفة إيجابية عميقة تنشط فى النوم مثلما تنشط فى اليقظة، ترتب المعلومات، وتُحكم التناغم وتفرض التعلم (نشرة أمس) ألا يعنى ذلك قيام الحلم بنشاط معرفي هو أقرب إلى الإدراك، بل أقرب إلى الإبداع من نشاط التفكير اليومي العادي بما فى ذلك الفهم

"الحلم بالقوة"، أو الحلم الخام، وأعنيك به حركية الحلم الأولية (وقد غامرت بهذه التسمية من واقع نبض اللغة وحركية الخبرة معاً).

أتراجع عن مصطلح "الحلم بالفعل" و"الحلم الحركي" مكتبياً

النقطة الثالثة هو ما جاء قرب نهاية النشرة من أن "المحتوى الفج الذى يتحرك فى هذا المستوى لا يظهر أبداً فى وعى اليقظة، فمن أين لنا أن نعزو الآثار التنظيمية والتعليمية والنمائية إليه، وما علاقة ذلك بالإدراك؟ لا يوجد عندى رد حالاً، وإن كنت أمل أن يوجد فى المستقبل القريب أو البعيد.

مراحل الحلم

تكلمة لما بدأناه أمس تتعدد وتتصاعد مراحل الحلم كالتالى:

المرحلة الأولى:

يتم فيها الحلم، دون إمكان حكايته، وهو ما سوف نسميه هنا: "الحلم بالقوة"، أو الحلم الخام، وأعنى به حركية الحلم الأولية (وقد غامرت بهذه التسمية من واقع نبض اللغة وحركية الخبرة معا).

المرحلة الثانية:

يغلب فيها "الرصد" على "التأليف" مع احتمال حكى بعض ملامح الحلم. "هكذا"، بقدر هائل من تناثره وتكثيفه، ونسميها: "الحلم بالفعل"، أو "الحلم الحركى".

وأنا الآن بعد أكثر من عشرين سنة من كتابة هذه الأطروحة أود أن أعلن ضعف جرعة الرصد حتى فى هذه المرحلة، وفى نفس الوقت أراجع عن مصطلح "الحلم بالفعل" و"الحلم الحركى" مكتفياً بتعبير "الحلم الفج" الذى هو أقرب إلى الإدراك المعرفى/الوجدانى منه إلى الخيال، وطبعاً إلى التفكير.

المرحلة الثالثة:

هى المرحلة التى تسمى عند العامة وعند الخاصة أيضاً "حلماً" من حيث إنها الحلم كما يحكيه الحالم تأليفاً عادة، ونسميها: "الحلم بالتأليف". أو "الحلم المبدع"، على أن هذه المرحلة الأخيرة ليست واحدة، عند كل الناس، ذلك لأن التأليف يختلف أصالة وتزييفاً، بحسب درجة وصاية نوع التفكير الذى يقوم بعملية الإبداع ساعة اليقظة، أى الذى يتولى مهمة إعادة التشكيل من المادة (المعلومات) المتاحة عند الاستيقاظ مباشرة.

وتقل جرعة إبداع الحلم كلما اقتربت حكاية الحلم من اللغة العادية ومن التسلسل الزمنى التتابعى العادى، حتى تصل بعض الأحلام إلى حد تكاد عنده ألا تكون لها علاقة أصلاً بالنشاط الحالم الذى أثارها. مثل هذه الأحلام هى التى تستحق أن يقال عنها "الحلم بالتزييف"، وهذا لا يعنى المعنى الأخلاقى للتزييف وإنما المعنى الانشاقى المصاحب لتنشيط درجة من الخيال ويستحسن تسميته "الحلم المؤلف"، وهذا يقابل ما أشرنا إليه فى حالة الإدراك التجاوزى حين أكدنا أنه ليس ناتجاً عن الخيال كما نعرفه.

يمكن أن نتصور متدرجاً - نظرياً - لإبداع الحلم، يبدأ فى أقصى ناحية من تصور أن المادة التى نشطت يمكن أن يلتقطها الحالم كما هى (كالتصوير الفوتوغرافى العادى)، وهذا مستحيل كما أشرنا، وينتهى فى أقصى الناحية الأخرى، بتصور أن المادة المنشطة سوف تختفى تماماً من وعى اليقظة، وتحل محلها مادة بدلية من صنع الخيال (مزيفة)، وهذا ما يبدو فى صورة الأحلام التى تُحكى متسقة ومنظمة ومسللة وظاهرة الدلالة، والتى تشبه كثيراً أحلام اليقظة، أو أحداث اليقظة،

بتعبير "الحلم الفج" الذك هو أقرب إلـك الإدراك المعرفى/الوجدانى منه إلـك الخيال، وطبعاً إلـك التفكير

الحلم كما يمكنه الحالم تأليفاً عادة، ونسميها: "الحلم بالتأليف". أو "الحلم المبدع"، على أن هذه المرحلة الأخيرة ليست واحدة، عند كل الناس، ذلك لأن التأليف يختلف أصالة وتزييفاً، بحسب درجة وصاية نوع التفكير الذى يقوم بعملية الإبداع ساعة اليقظة

تقل جرعة إبداع الحلم كلما اقتربت حكاية الحلم من اللغة العادية ومن التسلسل الزمنى التتابعى العادى، حتى تصل بعض الأحلام إلى حد تكاد عنده ألا تكون لها علاقة أصلاً بالنشاط الحالم الذى أثارها

أن المادة المنشطة سوف تختفى تماماً من وعى اليقظة، وتحل محلها مادة بدلية من صنع الخيال (مزيفة)، وهذا ما يبدو فى صورة الأحلام التى تُحكى متسقة ومنظمة ومسللة وظاهرة الدلالة، والتى تشبه كثيراً أحلام

اليقظة، أو أحداث اليقظة

كل ما يقع بين هاتين النقطتين القصويتين يمثل درجة ما من درجات الإبداع الذي يختلف باختلاف قدر تحمل المواجهة الغائرة التي تَعْتَمَّهَا نشاط الحلم الأساس

بقدر اختلاف جرعة أمانة التسجيل من ناحية، ونشاط التأليف الضام للمادة المستتارة من ناحية أخرى، دون وعى كامل: يبدو الحلم إبداعاً أصيلاً، أو تفسخاً غامضاً أو تسطيحاً بديلاً

ثم حلم شديد التكثيف، سريع النقلات، متعدد الطبقات، وأهد العلاقات، وهو الأقرب إلح ما أسمىناه "الحلم الفج" مع تذكر أن الحلم الخام، أحد الحلم بالقوة، السابق لهذا الحلم الفج لا يظهر كما هو أبداً

كلما قلت جرعة التناثر وخف التكثيف وزادت غلبة التفكير العادي نبتعد عن عمق ما هو حلم بالقوة أو الحلم الفج، لنتجه نحو ما هو تأليف وإبداع فك حالة وعى متوسط بين النوم

وكل ما يقع بين هاتين النقطتين القصويتين يمثل درجة ما من درجات الإبداع الذي يختلف باختلاف قدر تحمل المواجهة الغائرة التي تَعْتَمَّهَا نشاط الحلم الأساسي.

بقدر اختلاف جرعة أمانة التسجيل من ناحية، ونشاط التأليف الضام للمادة المستتارة من ناحية أخرى، دون وعى كامل: يبدو الحلم إبداعاً أصيلاً، أو تفسخاً غامضاً أو تسطيحاً بديلاً.

تقسيم مستويات الأحلام

على هذا الأساس يمكن تقسيم الأحلام حسب موقعها على هذا المتدرج إلى مستويات حسب:

(أ) درجة التكثيف

(ب) فرط التداخل

(ج) مستوى اللغة المستعملة

(د) نوع شبكة العلاقات بين أبجديتها

1) فثم حلم شديد التكثيف، سريع النقلات، متعدد الطبقات، واهى العلاقات، وهو الأقرب إلى ما أسمىناه "الحلم الفج" مع تذكر أن الحلم الخام، أي الحلم بالقوة، السابق لهذا الحلم الفج لا يظهر كما هو أبداً. فعل الإبداع هنا قوى وصادق، لأنه ليس تصويراً بسيطاً، ومن ثم فإن حكايته كما هو - لو أمكن - هي محاولة إحاطة ضامة لتناقضات مواجهة، في إطار مسئولية الوعي، وعادة ما يستحيل ترجمته حرفياً إلى لغة اليقظة، فهو لا يُحكى عادة بما هو، فإذا حُكي فإنه يحكى بشكل غامض ومتداخل واحتمالي، وليس بشكل حكى واضح مسلسل، مجرد لقطات متباعدة غالباً.

وقد تظهر لمحة منفصلة من هذا الحلم بشكل شديد التركيز يمكن أن نطلق عليه إسم: "الحلم اللقطة Shot تكون أكثر وضوحاً وأقل تشكيلاً لشدة قصر الحلم مما يخفف من غموضه وإن لم يقلل من عمقه.

2) كلما قلت جرعة التناثر وخف التكثيف وزادت غلبة التفكير العادي (التفكير من نوع: "حل المشاكل") نبتعد عن عمق ما هو حلم بالقوة أو الحلم الفج، لنتجه نحو ما هو تأليف وإبداع في حالة وعى متوسط بين النوم واليقظة.

3) ثم ينتهي المتدرج إلى الحلم المؤلف، وهو الحلم الذي يكاد يفصل عن جوهر التنشيط الحالم، ومن ثم المادة المفككة المستتارة؛ وكأنه استبدال للحلم الأصيل بحلم مصنوع بتأثير خيال يشبه خيال حلم اليقظة، وهو يتم في وساد ما يمكن أن يسمى: الوعي المنشق [1] وهو وعى مواز لوعي اليقظة وليس متبادلاً معه مثل وعى النوم ووعي الحلم الفسيولوجي (الخام بالقوة).

قد نقابل هذا النوع من الأحلام المؤلفة، عندما نوقظ النائم في فترة النوم غير الحالم (بدون الريم) NREM، فنجدته يحكى حلماً يقال عنه إنه "مثل-التفكير المفهومى في اليقظة" [2]، ويقصدون أنه مرتب، منطقي، مسلسل، واضح. وهذا يؤكد مذهبنا إليه من أن مثل هذا الحالم حين أوقظ لم تكن في مواجهته مادة (معلومات) مفككة متزاحمة متحركة أصلاً، وبالتالي لم تتحرك العين بسرعة لتتبعها، فانشق وعى اليقظة ونسج ما يتلاءم مع شقه الواعي، مثلما تعود في حالة اليقظة.

أكدنا فيما سبق أن الحلم ليس مجرد تفرغ دوافعي، أو انفعال موجه، أو إدراك سلبي، وقد نوقش ذلك في الأدبيات المنشورة بتفصيل مسهب، ثم إن النظر الأحدث إلى نشاط الحلم ينفي أنه نشاط بدائي يستعمل العمليات الأولية فحسب (كما زعم فرويد) تلك العمليات التي تغلب على تفكير الطفل، والمجنون، والشخص البدائي (كما يزعمون)، في مقابل العمليات الثانوية [4] التي تصف تفكير الناضج الممنطق (منطق "أرسطو، وليس منطق فون دوماروس" [5])، فإلى أي نوع من النشاط العقلي يمكن أن ينتمي الحلم؟

إن الحلم يستعمل مزيجا من كل العمليات العقلية: الأولية في مرحله الأولى، والثانوية في مرحله المؤلفة والإبدائية، لكنه أيضا يستعمل العمليات "الثانوية" [6] التي قال بها "أريتي Arieti". وهي العمليات التي تجمع بين العمليات الأولية والثانوية في ولاف ضام [7]، وقد أشار إلى مثل ذلك "ديستوفيسكي" نسا حين قال: "... تتميز الأحلام ببروز قوى، وشدة خارقة، وتتميز كذلك بنشابه كبير مع الواقع، قد يكون مجموع اللوحة عجيبا شادا، ولكن الإطار، ومجمل تسلسل التصور يكونان في الوقت نفسه، على درجة عالية من المعقولة، ويشتملان على تفاصيل مرهفة جدا، تفاصيل غير متوقعة، تبلغ من حسن المساهمة في كمال المجموع أن الحالم لا يستطيع أن يبتكرها في حالة اليقظة، ولو كان فنانا كبيرا، مثل "بوشكين"، أو "تورجنيف" [8]. (وسوف أرجع إلى تفصيل بعض ذلك عند التطبيق المقارن) [9] ("عن طبيعة الحلم والإبداع" - دراسة نقدية في أحلام فترة النقاهاة نجيب محفوظ - دار الشروق، 2011).

إذن، فالحلم ليس مجرد خلط عشوائي، وإنما هو أحد تجليات الإبداع الخاص في ظروف لا تسمى إبداعا أصلا، ذلك لأنه يحضر فجًا نتيجة سرعته الهائلة، وتناهي قصر وحدته الزمنية، مما يجعل احتمالات تشويبه وتسويحه أكثر تواترا من الإبداع المصقول، لكنه إبداع بمعنى أن ناتجه، في حالة كفاءة وظيفته ولو على المدى الطويل، هو إعادة تنميط [10] أي أنه تنسيق تلقائي دوري راتب (انظر بعد)، مقارنة بالإبداع الذي هو إعادة تشكيل في حالة من الوعي الفائق والإرادة الغامضة المشتملة.

وبعد

هنا احتمال ربط جديد بالإدراك كما قدمناه أو كما اكتشفناه في ملف الإدراك، وبالذات وظيفة الإدراك فيما اسمناه "التلقى المبدع، ذلك أننا لو افترضنا أن العين الداخلية تدرك بطريقتها ولغتها حركية "المعلومات" المستتارة أثناء النوم النقيضي أعنى نوم حركة العين السريعة، فتقوم بتلقى هذه المعلومات تلقيا مبدعا وهو أحد النشاطات التي عزونها للإدراك خاصة، فإن هذا التلقى المبدع هو القادر على إعادة التنشيط أي إعادة التشكيل في منظومة مختلفة، فهو الإبداع الذي تظهر آثاره في آثار النوم الفورية (ليس بالضرورة باسم الإبداع) أو بعد تراكم إيجابي يشمل حركية عمليات جدلية معرفية نمائية أساسية.

الحلم المؤلف، وهو الحلم الذي يكاد يفصل عن جوهر التنشيط الحالم، ومن ثم المادة المفككة المستتارة؛ وكأنه استبدال للحلم الأصلي بحلم مصنوع بتأثير خيال يشبه خيال حلم اليقظة

الحلم ليس مجرد تفرغ دوافعي، أو انفعال موجه، أو إدراك سلبي

إن النظر الأحدث إلى نشاط الحلم ينفك أنه نشاط بدائي يستعمل العمليات الأولية فحسب (كما زعم فرويد) تلك العمليات التي تغلب على تفكير الطفل، والمجنون، والشخص البدائي (كما يزعمون)، في مقابل العمليات الثانوية [4] التي تصف تفكير الناضج الممنطق (منطق "أرسطو، وليس منطق فون دوماروس" [5])

إن الحلم يستعمل مزيجا من كل العمليات العقلية: الأولية في مرحله الأولى، والثانوية في مرحله المؤلفة والإبدائية، لكنه أيضا يستعمل العمليات "الثانوية" [6] التي قال بها "أريتي Arieti".

ملاحظة:

أود أن أشير إلى أن كل ما أشرت إليه من الإدراك يمكن أن نضيف بجواره بين قوسين "الوجدان المعرفي"، لكنني فضلت الاكتفاء بالحديث عن الإدراك حتى لا يتشتت ذهن القارئ الذي اعتاد أن تقفز إلى ذهنه بمجرد ذكر "الوجدان"، مفاهيم ومضامين العوظف والانفعال والأحاسيس دون البعد المعرفي.

ونواصل الأسبوع القادم الحديث عن مادة الحلم ثم لغته وأبجديته.

[1] - Dissociated consciousness

[2] - Castaldo V. Shevrin H. (1968): Different Effects of an Auditory Stimulus as a Function of REM and NERM Sleep Psychophysiology 5: 219, (After Hall J).

[3] -Secondary

[4] -Tertiary Processes

[5] - يقابل "سيلفانو أريتي" بين قواعد منطق أرسطو، ومنطق: فون دوماروس وخاصة فيما يتعلق بتفكير الفصامي، من حيث أن منطق فون دوماروس يقبل اجتماع الأضداد، وتداخل المقدمات في التوالي، وغير ذلك، مما يناقض منطق أرسطو الذي يراجع مؤخرًا بنقد شديد في مواقع شتى

Arieti, S. (1974) Interpretation of Schizophrenia. New York, BasicBooks, Inc. Publisher p229-298.299

[6] - Arieti, S. (1976) Creativity. The Magic Synthesis. Basic Books, Inc.

Publishers, New York, p12.-13

[7] - Converging synthesis

[8] - اقتطف نفس المقتطف دافيد فولكس (هامش 14)، ص4، وحين رجعت إلى الأصل وجدت أن هذا الوصف خصه دستويفسكي بـ "حالات المرض" (ترجمة سامي الدوربي ص120، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1970) فتبدأ الفقرة بـ "في حالات المرض، تتميز الأحلام... الخ، وتنتهي الفقرة نفسها بأنه: "... وهذه الأحلام، أعني الأحلام المرضية، تخلف دائما ذكرى باقية... الخ"، وقد أضفت ما تقدم وما تأخر في المسودة، ثم عدت فحذفتها كما فعل فولكس، ذلك لأن

العمليات التكملة تجمع بين العمليات الأولية والثانوية فك ولاف ضام [7]

إذن، فالحلم ليس مجرد خلط عشوائي، وإنما هو أحد تجليات الإبداع الخاص فك ظروف لا تسمح إبداعاً أصلاً، ذلك لأنه يحضر فجاً نتيجة سرعته الهائلة، وتناهد قصر وحدته الزمنية، مما يجعل احتمالات تشويبهه وتسطيحه أكثر تواتراً من الإبداع المصقول

لكنه (الحلم) إبداع بمعنى أن ناتجه، فك حالة كفاءة وظيفته ولو على المدى الطويل، هو إعادة تنميط [10]، أكد أنه تنسيق تلقائي دورك راتب، مقارنة بالإبداع الذك هو إعادة تشكيل فك حالة من الوعي الفائق والإرادة الغامضة المشتملة

لو افترضنا أن العين الداخلية تدرك بطريقتها ولغتها حركية "المعلومات" المستتارة أثناء النوم النقيض أعني نوم حركة العين السريعة، فنقوم بنقل هذه المعلومات تلقياً مبدعاً

دقة وصف ديستوفيسكى لإبداع الحلم هو المراد هنا من المقتطف، أما قصر ذلك على الأحلام المرضية فهذا مالا تؤيده الملاحظات التالية، وبخاصة أن هذا جزء أساسى من مجال ملاحظتى المهنية، فاستشهدتُ بما أردت تأكيده، ثم وضعت هذا الهامش باعتبار أن ديستوفيسكى ليس هو المرجع الذى يصنف حالة المرض من عدمها، فرأيه الشخصى الإبداعى هو بالغ الأهمية، لكنه ليس رأياً ملزماً لمعنى المرض والصحة كما تقدمه هذه المدخلة.

[9]- وقد قمت مؤخراً بنقد أحلام فترة النقاهة لنجيب محفوظ، ومع أنها ليس أحلاماً بل إبداعاً صرف فقد أكدت هى والنقد، وما نسجيت على منوالها من أحلام مكملة (نص على نص) ما يؤكد بعض ما جاءت فى هذه الأطروحة.

[10] - Repatterning

إن هذا التناقض المبدع هو القادر على إعادة التنشيط أحد إعادة التشكيل فك منظومة مختلفة، فهو الإبداع الذى تظهر آثاره فك آثار النوم الفورية (ليس بالضرورة بأسس الإبداع) أو بعد تراكم إيجابك يشمل حركية عمليات جدلية معرفية نمائية أساسية.

*** **

للتسجيل فى وحدة الدراسة و البحث فى الإنسان و التطور

ارسل طلبك الى بريد الشبكة

arabpsynet@gmail.com

مصحوبا بالسيرة العلمية

<http://www.arabpsynet.com/cv/cv.htm>

كامل نشرات " الإنسان و التطور " (اليومية) على الويب

<http://www.rakhawy.org>

www.arabpsynet.com/Rakhawy/IndexRakAr.htm

*** **

ربيع - صيف 2012

" القصة " ... قراءة من منظور تطوري

www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakBookSpring&Summer12.pdf

www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakBookSpring&Summer12.exe

أصدار شتاء 2012

عندما يتعرج الإنسان

www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakBookWinter12.pdf

www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakBookWinter12.exe